توثيق القرآن

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

[الحجر : ٩]

قال وقد أقبل علىَّ وفى وجهه سيماء الجد والتحفز: ها قد أتيت وإنى لمتأهب وإنى لعند وعدى ألا أتخلف ولا أفر من النزال.

قلت مبتسماً: تعرف! رغم اختلافى معك كثيراً يعجبنى منك جدك ويشدنى إليك إخلاصك لما تقتنع به واعتبارك أفكارك وآراءك حصوناً تدافع عنها وتقاتل فى سبيلها.

قال وقد لاحت ابتسامة صغيرة على شفتيه: ويعجبنى فيك هدوءك، على أنى أنبهك أننى لست ممن تستهويهم المجاملات فتميل بهم عن آرائهم إلى آراء من يجاملونهم.

قلت: فلندع حديث المجاملات جانباً. ما رأيك أن نبدأ من أكثر مسألة يثار الغبار حول القرآن بها ويتشكك...

قاطعنى قائلاً: وما هى؟

قلت: نقل القرآن وصحته وكونه وثيقة لا تقبل الشك ولم تمتد لها يد التحريف بل ظلت محفوظة لا تبديل ولا تغيير تصديقاً للقرآن نفسه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

قال: ما أظنك ستأتى بجديد! فإنى أرى أصحاب كل دين يتكلمون ما يتكلمون ويدافعون ما يدافعون ثم ينتهون إلى خطب عصماء يدعى فيها كل منهم أن كتابه هو الصحيح الذى لم يتبدل ولم يتغير وما سواه فمحرف أو منحول. وما يملك أحد منهم حجة إلا صوته وضجيجه وسط أتباعه.

قلت: ربما كان معك بعض الحق فيما تقول. ولكن! ألا ترى أن معرفة الصدق من الكذب فى هذه المسألة سهل وميسور؟ يكفى أن تقارن بين توثيق وكيفية نقل كل كتاب لتعرف أين هى الحقيقة وتميز الصادق من المخادع.

قال: ربما!

قلت: إذاً فلنؤجل حديث المقارنة قليلاً حتى لا يتشعب بنا الحديث فيسير فى مسالك متعددة ولا نصل إلى نتيجة. وليكن حديثنا عن توثيق القرآن أولاً.

وما إن أنهيت عبارتي حتى لمعت عيناه ببريق التحدى ومال بوجهه إلىّ وقال: أظنك ستعطيني محاضرة في توثيق القرآن وصحته وعدم تحريفه وأنه الكتاب السماوى الوحيد الذى لم يتغير، ثم تنهى محاضرتك وتطلب منى أن أهز رأسى بالموفقة.

وبعد اندفاعة كلماته كالعاصفة هدأ ومال إلى الخلف مسترخياً ثم قال بصوت حاسم: لا ... وألف لا.

قلت محاولاً تهدئته: هون عليك ودع لى فرصة الكلام؛ فلم أطلب ذلك منك ولست أفرضه عليك. إنى لأعلمك أديبًا أريبًا واسع الإطلاع ولا يصل إلى نفسك وقلبك إلا ما تُنخِّله بعقلك، فلن يجدينى إذًا شيئًا أن أسرد لك محاضرة ثم تهز رأسك – إن فعلت – مجاملة ونكون قد انتهينا كما ابتدينا.

قال: فماذا تريد إذن؟

قلت: قد اتفقنا أنى لا ألزمك بقبول شئ إلا من جهة عقلك وبالحجة الثابتة، شرط أن لا تكابر ولا تعاند فيما يظهر أنه لا مراء ولا شك فيه.

قال: نعم! قد اتفقنا. فلك على هذا. لكن ماذا عما لى عليك؟

قلت: لك على أن لا أعطيك قوالب جامدة فأطلب منك قبولها كما هى، بل لك ألا تدع فى نفسك نقداً إلا قلته ولا شبهة إلا أثرتها، فإما سلمت لى وإما أقررت أنا بعجزى عن إقناعك.

قال وهو ينظر إلىّ بعيون ملؤها الحذر: قد وافقت. على أنك يجب أن تعرف أننى لن أكون رفيقًا ولن أداور فيما يساورنى، ولن ألتزم الحيطة فى كلماتى ولا التحسس حتى لا تصيب منك موضعا تكرهه.

قلت: بل أقول لك: إنى ليعجبنى ذلك فيك. فلا تلزم الحذر ولا تنتقى من الكلمات أرقها. وغاية ما أرجوه منك ألا يخرج كلامك عن النقد والاستقصاء إلى السباب مما لا يليق بمثلى ومثلك وما لا يليق فى شأن من نتحدث عنه وعنهم، إن لم يكن بميزان العقائد فبميزان التاريخ والاجتماع.

قال فى هدوء: ذلك لك، ولا أماريك فيه.

قلت: تعلم أن القرآن نزل على النبى عليه الصلاة والسلام منجمًا مفرقًا فى بضع وعشرين سنة؛ فكل نجم منه آية واحدة أو بضع آيات.

قال: أعرف ذلك. وإنى لأعجب كيف يقال: إن القرآن نزل فى بضع وعشرين سنة آية آية أو بضع آيات بضع آيات ثم يقال بعد ذلك: إنه قد جمع كاملاً ولم يُفقد منه شئ! أو لست ترى أن ذلك فوق الممكن ومما لا يقبله عقل سديد؟

أرأيت لو أن امرأ - كائنًا من كان - جمعت عباراته البليغة وتعليقاته الصائبة الباهرة والتى قالها فى عشرين سنة، أيصدق عقل أنه لا يُفقد من كلامه ولو عبارة أو جملة؟ أشك فى ذلك!

قلت: أراك تخطئ خطأً بالغًا لا يليق بمن كان فى عقلك وسداد رأيك! أما ترى أنك ما زدت على أن جعلت القرآن فى رتبة كلام البشر؟ أتظن أن المسلمين الأوائل كانوا ينظرون إلى القرآن نظرة عامة الناس أو خاصتهم إلى كلام الخطباء أو الساسة ومن دونهم.

خبرنى! هذا كلام أعجزهم ثم آمنوا به وسلموا له تسليماً مطلقاً وأيقنوا أنه كلام الله عز وجل وخطابه إلى البشر، ثم هو قد مس شغاف قلوبهم حتى ليضحون فى سبيله بأهلهم وعشيرتهم، بل ومهجهم وأرواحهم، أفتراهم يتركون كلاماً يوقنون أنه من الله وتتعلق به قلوبهم تعلق الوليد بأمه ليضيع بعضه أو كله؟

قال: أظن.....

قاطعته قائلاً: مهلاً! فإنى لا أريدك أن تجيب بلسانك وعقلك، بل أريدك أن تضع نفسك مكان أحدهم وتفكر بعقله وتحس بقلبه وتنطق بلسانه. ألو كنت مكان أحدهم وهذا مقام القرآن عندك فماذا أنت منه؟

قال: لا ريب كنت أهفو إليه وأتلهف عليه وأتتبعه تتبع الأم الرؤوم وليدها.

قلت: أشكر لك إنصافك وعدم مكابرتك. فما كان من صحابة النبى عليه الصلاة والسلام إلا ما تقول وأكثر منه. إن أحدهم كان يزاول مهنته وحرفته ويكتسب الرزق وإن قلبه لمعلق بالقرآن يخشى أن تنزل منه آية فتفوته حتى ليتناوب مع صاحب له على أن يأتى كل منهم النبى ﷺ يوماً حتى لا تفوته آية.

قال: إن هذا لعجيب حقاً! وما أظن أن لذلك مثيلاً فى تاريخ البشر.

قلت: وهو على ذلك حقيقة لا مراء فيها. فعمر بن الخطاب يقول هو عن نفسه إنه كان يتناوب مع الأنصارى الذى آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بينه وبينه على إتيان النبى عليه الصلاة والسلام؛ كلٌ منهما يأتيه يوماً يستطلع أخبار الوحى حتى لا يفوتهما شئ من القرآن ينزل، ثم يعود به إلى صاحبه ويخبره به ويحفظانه معاً.

قال: قد أقررت لك، قد شغفوا بالقرآن وانقادوا له حتى ليتلهفون على نزوله ويتعقبون آياته من بعضهم ومن فى النبى، لكن يظل فى نفسى شئ!

قلت ما هو؟

قال: إنك لا تحدثنى عن مجتمع مستقر رخى البال كلٌ يغدو فيه إلى عمله ولا يكون بعد ذلك من همه إلا تتبع القرآن وحفظه. ولم يكن المسلمون الأوائل فى دولة متينة الأركان ولا حياة رتيبة هنية. وما أظنك بحاجة إلى أن أذكرك أن ذلك كان بداية عصر جديد والمخاض لميلاد مجتمع وتأسيس دولة. ثم حروب ومعاهدات، ووفود وجموع، ورسل وبعوث، ومجموعات تخرج هجرة إلى الحبشة من مكة، وأخرى تخرج للغزو فى المدينة. وإنى أسلم لك بتتبعهم للقرآن واستقصائهم له وحفظه فى حياة النبى. ولكن! أما ترى أن طبيعة الحياة نفسها وصخبها وزحامها وتقلباتها التى لا تعرف الأناة ما كانت تسمح لهم – وإن أرادوا – بهذا الحصر الدقيق لآيات القرآن والاستيعاب الكامل له.

قلت: إن الأمر لكما تقول وما أجادلك فى ذلك.

قال: ها أنت أيضاً قد أقررت بصعوبة جمع آيات القرآن كلها فى حياة النبى.

قلت: أراك دائماً تبادرنى ولا تمهلنى!

قال: قد سكت! فقل إنى مصغ!

قلت: إنى وإياك قد تكلمنا فى شأن الصحابة وتعلقهم بالقرآن وتتبعهم لآياته، ولكن أنسيت صاحب الرسالة المنزل عليه القرآن نفسه عليه الصلاة والسلام. فإنى سائلك فأجبنى: كيف كان النبى عليه الصلاة والسلام يرى القرآن؟

قال: كان يراه معجزته ووحى الله إليه والشريعة التى أنزلها عليه.

قلت: وأزيدك أنا: وإنه ليراه دليل نبوته وبرهان رسالته وحجته على العرب ورفع ذكره. وأفضل من ذلك كله رضا ربه عليه وحبله الذى يصله به.

قال: فليكن! فهذا شأن القرآن لديه ومقامه عند نفسه.

قلت: فتأمل معى وقل لى: أتراه ﷺ يتشوق لحفظ القرآن ويتلهف له أم يترك معجزته ورسالته ودليل نبوته وصدقه وصلة ربه به ليتبدد أو يُفقد منه شئ؟ ألست ترى أن ذلك لا يسوغ فى عقل ولا تقبله نفس؟

قال: إنى موافقك. وما أراك إلا تشرح لى قول القرآن نفسه فى قوله: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة: ١٦، ١٩].

قلت: هو ذاك.

قال: حسناً! كان النبى متلهفاً لحفظ القرآن حريصاً عليه يخاف أن يتفلت منه شئ. لكنه - بعدُ - أمى لا يكتب ولا يسجل. أليست هذه شهادة القرآن نفسه فى قوله: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٨]؟

قلت: بلى! إنها شهادة القرآن وإنها لشهادة صادقة.

قال: فانظر معى! الصحابة كانوا يسجلون القرآن ويكتبونه، ولكنهم كانوا

يفعلون ذلك لأنفسهم ولربما فات أحدهم – لشغله أو غيابه – آية أو آيات، فلا يكون القرآن قد اكتمل عنده. والنبى نفسه يحفظ كل الآيات لكنه لا يكتب ولا يسجل. فها أنت ترى بعد كل ما وصلنا إليه أن الأمر لم يستقم لك. ولا أسلم لك إلا بحجة.

قلت: أراك قد وضعت المسألة فى معادلة رياضية؛ فالنبى يحفظ ولا يكتب. والصحابة يكتبون ولا يحفظون كل القرآن. إنى لأشكرك. فقد سهلت حل المعضلة، بل حلت من تلقاء نفسها بمعادلتك هذه.

نظر إلى مستغرباً وقال: كيف؟

قلت: فلنحلها طرفاً طرفاً.

أما أن الصحابة كانوا مشغولين لا يستقر بهم حال، وهم يحملون عبء نشر الرسالة وتوطيد أركانها فذلك ما أسلمه لك. ولكن ليس تسليماً مطلقاً!

قال: لا تحيرنى بالغازك هذه!

قلت: صبراً! نعم كان الصحابة مشغولين بجلائل الأمور. ومع ذلك فقد كان شأن القرآن عندهم أكبر من أن يشغلهم عنه شاغل، بل فرغ بعضهم نفسه له يدونه ويحفظه. وإن بعضاً منهم ليحفظ القرآن كاملاً.

قال: كاملاً؟! ربما أصدقك فى ذلك بعد وفاة النبى بأزمان.

قلت: بل فى حياته ﷺ. ألا ترى أن القرآن قد حثهم على ذلك وجعل لمن فرغ نفسه له مكانة خاصة ترغيباً وتحبيباً: ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ثم هذا صحيح البخارى. اقرأ هاهنا، فإنى أحب أن أسمعك تقرأ.

قال: عن قتادة: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. قلت: ومن أبو زيد؟

قال: أحد عمومتى[1].

قلت: ها أنت ترى أن من الصحابة من كان يحفظ القرآن كله على عهد النبى ﷺ.

قال: فهؤلاء أربعة فقط وبشهادة أنس بن مالك. أتظن أربعة يكفون لإثبات تسجيل القرآن وكتابته وحفظه؟

قلت: ليسوا أربعة، بل كثير كثير.

قال: والله إنى لأعجب منك! راوى الحديث الصحابى يقول: إن جامعى القرآن أربعة على عهد النبى وبصيغة الحصر ثم تقول لى أنت: كثير. هل تريد منى أن أصدقك وأكذب من شاهد وعاصر؟!

قلت: لا. وأستغفر الله من ذلك. أفترانى أزل وأسفل حتى أصم من أراهم أطهر الناس بالكذب؟

قال: قد حرت والله معك. فماذا تعنى إذن؟

قلت: المسألة بسيطة. إن أنساً رضى الله عنه قال هذا الكلام - كما روى ابن جرير الطبرى - فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج.

قال: مفاخرة! ألا يقول القرآن إنه قد ألف بينهم، ويقول النبى إنه نزع عنهم نخوة الجاهلية.

قلت: صبراً! إنها مفاخرة بالإسلام لا بالعصبيات. قالت الأوس: منا أربعة: من اهتز له عرش الرحمن: سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته رجلين: خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة: حنظلة بن أبى عامر، ومن حملته الدبر: عاصم بن أبى ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم. وذكرهم. فأنس - رضى الله عنه - حين ذكر من جمعوا القرآن فى حياة النبى عليه الصلاة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «مناقب الأنصار» باب «مناقب زيد بن ثابت رضى الله عنه» حديث رقم (٣٨١٠).

والسلام إنما كان يتحدث عمن جمعه من قومه الخزرج خاصة لا من المسلمين عامة.

قال: إنك لتناورنى بحذق ومهارة. ورغم ذلك لا أسلم لك، فإنك قد نفيت دون أن تثبت. قد نفيت لى أن يكون قد جمع القرآن أربعة فقط، ولكنك لم تثبت لى أنه قد جمعه غيرهم.

قلت: ذلك سهل ميسور. وسأجعلك تصل إليه بنفسك. هناك أمر معلوم كالبديهة. قل لى: من أحق الناس بإمامة المسلمين فى الصلاة؟

قال: أقرؤهم للقرآن.

قلت: وما أقرؤهم؟

قال: أحفظهم.

قلت: فقل لى: كيف كان أبو بكر يصلى بالناس فى حياة النبى ومنهم هؤلاء الأربعة وهو لا يحفظ القرآن كاملاً؟

قال: فهؤلاء خمسة! وهم أيضا قليل!

قلت: إذا فكيف بعثمان بن عفان وقد رُوى أنه كان يصلى فى الليل ركعتين يقرأ فيهما القرآن كله؟

قال: فهؤلاء ستة!

قلت: فماذا عن عبد الله بن عمر وقد روى ابن ماجة أنه قال عن نفسه: جمعت القرآن فقرأته كله فى ليلة فقال النبى ﷺ: إنى أخشى أن يطول عليك الزمن وأن تمل فاقراه فى شهر(١).

قال: فسبعة؟

قلت: فكم يقنعك؟

---

(١) رواه ابن ماجة فى كتاب «إقامة الصلاة» باب «فى كم يستحب يختم القرآن» حديث رقم (١٣٤٦).

قال: لا أقل من عشرات.

قلت: هذه أيضا ميسورة، فقد قتل في غزوة بئر معونة سبعون من الصحابة وكانوا يسمون بالقراء لحفظهم القرآن كاملاً.

قلت: قد لمحت أمارات القبول في عينيك ثم أراها الآن تتحول فتصير سؤالا.

قال: وكأنك تقرأ ما في نفسي. قد رضيت عن طرف المعادلة الأول. فماذا عن طرفها الثاني؟

قلت: النبي عليه الصلاة والسلام؟

قال: نعم النبي يحفظ القرآن. وما أظنك ستبرهن لي أنه كان يكتب أيضاً. وأرى أن طرف المعادلة الأول كان يسيراً، أما هذه فأظنها عسيرة عليك.

قلت: بل هذه أسهل من الأولى. قل لي: كيف يكتب الملوك والرؤساء؟

قال: لا افهم ما تعني؟

قلت: هذا سؤال بسيط: إذا أراد ملك أن يكتب رسالة أو مكاتبة فماذا يفعل؟ أيمسك الدواة والريشة أو القلم أم يستدعي كاتبه ليملي عليه؟

قال: بل يستدعي كاتبه ليملي عليه.

قلت: إذاً فقد حللت أنت طرف المعادلة الآخر. وما كان النبي عليه الصلاة والسلام يفعل إلا ما ذكرته أنت نفسك.

كان عليه الصلاة والسلام يعرف بنور ربه أهمية تسجيل الوحي القرآني وكتابته حتى يثبت القرآن وينفي عنه التحريف ويدرأ عنه ما أصاب كتب السابقين من التغيير والتبديل والزيادة والنقص. فكانت تنزل عليه الآية أو الآيات فيبادر عليه الصلاة والسلام إلى إملائها وتسجيلها فور نزولها.

قال: أراك وكأنك جهزت إجابة لكل سؤال ولا تزال تداور دون بينة.

قلت: بل هاك البينة فاقرأها بنفسك. هذا صحيح البخاري.

فأخذ يقرأ بتمهل شديد: عن البراء قال: لما نزلت «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله» قال النبى عليه الصلاة والسلام: ادع لى زيداً وليجئ باللوح والدواة والكتف ثم قال: اكتب: «لا يستوى القاعدون»، وخلف ظهر النبى عليه الصلاة والسلام عمرو بن أم مكتوم الأعمى قال: يا رسول الله فما تأمرنى، فإنى رجل ضرير البصر فنزلت مكانها: ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ** ﴾ [النساء: ٩٥](١).

قلت مبتسماً: ها! ما تقول فيما قرأت؟

قال فى أناة شديدة وهو يفصل كلماته: ادع لى زيداً ... لوح ... دواة ... كتف.

قلت: إنك لوقاد الذهن خاطف البديهة. نعم! زيد الكاتب، واللوح والكتف للكتابة عليها، والدواة أداة الكتابة. ألا ترى أن كل أدوات التسجيل الفورى موجودة حاضرة. وتأمل قول النبى عليه الصلاة والسلام: «ادع لى زيداً» دون أن يذكر ابن من يكون زيد، فهو معروف مشهور وكان تسجيل القرآن مختص به. فإذا جاء ذكر كتابة القرآن وتسجيله لم يُذكر إلا هو، وإذا ذكر اسمه الأول عند القرآن لم يحتج بعد ذلك إلى تعريف.

وانظر إلى قوله ﷺ: وليجئ باللوح والدواة، فلم يقل بلوح ودواة: ألا يدلك ذلك على أنها معدة مجهزة للكتابة، والتسجيل معهود عليها؟

وزيد نفسه.....

قال: رويدك! ترفق! قد صدقتك! كان النبى يسجل القرآن إملاءً على زيد، ولكنه واحد. فماذا إذا مرض أو سافر أو شغل؟

قلت: أراك تخرج لى من كل جملة سؤالاً. ولكن لا عليك.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «كاتب النبى». حديث رقم (٤٩٩٠).

لم يكن زيد وحده بل كان كتاب الوحى ثلاثة وأربعين كاتباً فى أتم إحصاء لهم، وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة.

فهؤلاء كانوا يكتبون بإملاء النبى عليه الصلاة والسلام مباشرة وبأمره وتحت إشرافه. وهذا غير من كان يكتب من الصحابة لنفسه سماعاً عن النبى عليه الصلاة والسلام أو عن غيره من الصحابة.

ابتسمت له وملت عليه قائلاً: أكاد أسمعك تقول لى: فماذا إذا مرضوا جميعاً أو سافروا؟

فما راعنى إلا أن استلقى بظهره إلى الخلف ضاحكاً ثم قال: إنك لداهية! تسد علىَّ الطريق حتى أقف فلا أسالك. فليكن!

ثم نهض مبتسماً ومال علىَّ قائلاً: قد أرهقتنى. ولكنها الجولة الأولى. فانتظر حتى أتهيأ لك ولن تكون لك الثانية.

ضحكت قائلا: إذن فهيئ عضلاتك جيداً وكن مستعداً للقاء.

* * *

قال بلهفة: اجلس فإنى لأنتظرك على أحر من الجمر.

قلت: ما تأخرت عن موعدى. وأراك احتشدت احتشاداً وتهيأت، وإن كتبك المفتوحة المتراصة لتنبئ بتنقيبك فيها.

قال: دعك من هذا وقل لى: قد حللت وأفضت وفصلت واستشهدت لتثبت لى أن القرآن كان مكتوباً فى حياة النبى ﷺ وكان محفوظاً من المسلمين حوله.

قلت نعم. فماذا فى ذلك؟

قال: فيه أنى أراك لا تختار من الأدلة إلا ما يوافقك ثم تغض الطرف عن غيره، وما كنت أنتظر منك هذا المسلك، وأن ما يكون من همك إلا الانتصار لما تراه ولو على حساب الحقيقة.

قلت: مهلا... مهلا، وقل لى.....

قال محتداً: بل خذ أنت. ها هو صحيح البخارى الذى أشبعتنى استدلالاً منه فاقرأ ها هنا.

قلت: لا بأس. ولكن هدئ من ثورتك قليلاً. عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلىَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن. وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن. وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن واجمعه. فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى آخر براءة. فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه(١).

قلت: ها قد قرأت! فماذا فى ذلك؟!

ضرب كفاً بكف ثم قال: ماذا فى ذلك؟! أبعد ما قرأت تقول لى: ماذا فى ذلك؟!

عمر قد اقترح على أبى بكر جمع القرآن ثم استدعى أبو بكر زيداً ليكلفه بذلك.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «جمع القرآن» حديث رقم (٤٩٨٦).

قلت : نعم! هذا قد حدث!

قال : إذاً فليس لهذا من معنى إلا أن القرآن لم يكن مجموعاً فى حياة النبى ﷺ ولا مرتباً فى آيات وسور .

قلت : بل كان مرتباً كما جمعه زيد فى آيات وسور على عهد النبى عليه الصلاة والسلام وفى حياته وبإشرافه .

قال : كيف تكون آيات القرآن مرتبة وقد كانت تنزل منجمة مفرقة . فربما نزلت الآية أو الآيات، وبعد زمن يطول أو يقصر تنزل آيات أخرى فيعمدون إلى هذه وتلك ويجعلونها فى سورة واحدة؟ وربما كان بين هذه وتلك آيات أخرى عديدة لا يضعونها معها فى نفس السورة . وإذا كانت الآيات مفرقة فى العسب واللخاف فكيف يعلمون أن مجموعة من الآيات تكون سورة من السور؟

قلت : إنك لتنسى أو تتعمد النسيان! نعم كانت الآيات مكتوبة مفرقة فى العسب واللخاف . ولكن أنسيت أن كثيراً من الصحابة كان يحفظ القرآن كله وعلى رأسهم زيد جامع القرآن نفسه؟

بل وكثير من المسلمين كالقراء الذين قتلوا فى بئر معونة والقراء الذين قتلوا فى اليمامة وكثيرون غيرهم ممن خاف عمر أن يستحر بهم القتل فى المواطن؟

قال : لا لم أنس . ولكنه لا يثبت لى أن هذا الترتيب الذى وضعوه للآيات فى سور أخذوه عن النبى ولم يكن جهداً خالصاً ولا استنباطاً منهم ثم قل لى : ما هذا التضارب؟

قلت : تضارب! أى تضارب تعنى؟

قال : كيف يكون زيد حافظاً للقرآن وتدعى أن كثيراً من الصحابة يحفظونه ثم هم لا يعلمون شيئاً عن هذه الآية التى وجدوها مع أبى خزيمة الأنصارى؟

قلت : رويدك قليلاً! أما أن ترتيب الآيات أخذوه عن النبى ﷺ ولم يأتوا

فيه بشئ من عند أنفسهم فهاك الدليل. رُوى عن ابن عباس أنه لما نزلت ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٨١]. قال جبريل للنبى عليه الصلاة والسلام : يا محمد ! ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة[١].

فتأمل قليلاً. ينزل جبريل بالآية فيعين للنبى عليه الصلاة والسلام موضعها من السورة ويقوم هو عليه السلام بتعيين مكانها لكاتبه ليضعها فى موضعها. أتريد بعد ذلك دليلاً على الترتيب الدقيق للآيات فى حياة النبى ﷺ وبتوجيهه وإشرافه؟

قال : انتظر! أتظن أنك تفتح كتاباً وتقرأ فيه نصاً ثم تريدنى أن أسلم لك به فى مسألة كهذه؟

قلت : لا. بل هاك شاهد آخر. هذا النسائى بين يديك يروى أنه عليه السلام قرأ ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١] فى الصبح حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أخذته سعلة فركع[٢].

فقل لى أنت : إذا لم تكن الآيات مرتبة كما هى فى المصحف الذى جمعه زيد بأمر أبى بكر فكيف كان يقرأ النبى عليه السلام من أول السورة إلى منتصفها؟

قال : فأعطنى دليلاً ثالثاً وسوف أقر لك.

قلت : قد رضيت، فاقرأ أنت بنفسك ما رواه الإمام مسلم.

فأخذ يقرأ : عن عمر قال : ما راجعت النبى عليه الصلاة والسلام فى شئ

---

(١) القرطبى جـ ٢ ص ١٢٩٦ . طبعة دار الغد العربى.

(٢) رواه النسائى من حديث عبد الله بن السائب فى كتاب « افتتاح الصلاة » تحت عنوان « قراءة بعض السور ».

أكثر مما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ لى فيه حتى طعن بإصبعه فى صدرى وقال: ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء[1].

قلت: لو كنت مكانك بعد هذا التحديد الدقيق لمكان الآية فى سورتها لما تبقى فى نفسى شك ولا ريبة اللهم إلا إذا كنت ممن يجعلون الشك مذهباً لهم وديناً لا طريقاً للحق. وما عهدت ذلك فيك.

قال: تريد أن تقطع علىَّ الطريق كعادتك. لكن هيهات! قد أفضت ودللت وما زالت فى طريقك صخرة لا سبيل لاقتلاعها.

قلت: فأين هى هذه الصخرة يا عنيد الرأس؟

قال: الآية المفقودة التى لا يحفظها إلا أبو خزيمة. وتريدنى أن أصدق أن الآيات كانت مرتبة كما هى؟!

قلت: ما عهدت فيك قلة الدقة وعدم الاحتراس وأنت المنهجى الدقيق. خذ هذا صحيح البخارى فأعد قراءة العبارة مرة أخرى.

قال: كما تحب: «حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره». ها قد قرأت.

قلت: إذا فالآية كانت توجد عند أبى خزيمة وحده لا أنه يحفظها وحده.

قال مادا صوته فى سخرية: حقاً! إنك لتعقد الأمور وتحملها فوق ما تطيق. وما أرى فارقاً بين العبارتين.

قلت: بل الفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض. ولو كانت كما تقول لجاز الشك. أما وهى كما هى فليس لك ذلك. فما كان زيد يعنى إلا أن الآية لم توجد مكتوبة مسجلة من عين ما كتب بين يدى النبى ﷺ إلا مع أبى خزيمة لا أنه يحفظها وحده، وزيد أولى بحفظها من أبى خزيمة.

قلت: ها! ما زلت ترى أنهم رتبوا الآيات كيفما اتفق لهم؟

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفرائض باب «ميراث الكلالة». حديث رقم (١٦١٧).

قال: فإذا كانت الآيات مرتبة فى حياة النبى كما جمعوها فى المصحف فلا أقل من أن السور لم تكن مرتبة. فهذا المصحف أمامك رتبت فيه السور المبدوءة بـ ﴿ حم ﴾ متوالية، وكذلك المبدوءة بـ ﴿ طس ﴾ و ﴿ طسم ﴾ متوالية. والسور الطويلة جاءت أولاً تليها القصيرة. فهذا مما لا يدع لعقلى شكاً فى أن هذه السور قد رتبت بطريقة عقلية على قاعدة واحدة تبدأ بالطوال فالقصار وتجمع المتشابهات معاً.

قلت: إنك لداهية أريب! أظنك انكببت على المصحف انكباباً تستقرئ سوره وتتفحصها حتى تصل إلى قاعدة تجمعها وتفسر ترتيبها.

قال: وماذا علىَّ فى ذلك؟ وما أراك تفعل أنت إلا ذلك! ولكن ها قد أوقعت بك هذه المرة.

ابتسمت قائلاً: ولا هذه المرة أيضاً. خانك استقراؤك وغلبتك عجلتك.

فهاك المصحف وفسر لى: إذا كان الذين جمعوا القرآن وكتبوه فى المصحف اجتهدوا فوضعوا الطواسين معاً ووضعوا الحواميم معاً؛ تفكر أنت وقل لى: ما الذى منعهم أن يجعلوا المسبحات البادئة بتسبيح الله معاً كالإسراء والحديد والحشر والصف والأعلى؟

قال: هذا واضح! وما ذلك إلا لأنهم كانوا يرتبون مراعين القاعدة الثانية: الطول.

قلت: ولا هذه أيضاً. فإذا كان الطول هو ضابطهم لكان الأولى أن تأتى ﴿ طسم ﴾ القصص قبل ﴿ طس ﴾ النمل، والأولى أطول بعدٌ كلماتها من الثانية، ومع ذلك فهى بعدها فى الترتيب.

خذها نصيحة منى. أعد استقراءك مرة أخرى وتأمل وتمهل، وإنى واثق أنك لن تجد قاعدة تظن أن سور القرآن رتبت عليها إلا وجدت ما يخالفها.

قال: فليكن! ليست هناك قاعدة مطردة رتبت سور القرآن عليها. ولكن ذلك لا يثبت أن النبى نفسه هو الذى رتبها هكذا.

قلت: يعجبنى ذهنك المرتب وعقلك اليقظ الذى لا يسلم إلا بعد بينة.

قال: فما هى البينة؟

قلت: هاك ما رواه الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى قال: كنت فى الوفد الذين أتوا النبى ﷺ وأسلموا من ثقيف... فقال لنا رسول الله ﷺ: طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من ﴿ق﴾ حتى يختم(١).

هيه! ما رأيك؟

قال: لست بحاجة إلى أن أذكر أن دليلاً لا يكفينى ولا يشفى غليلى!

قلت: بل وثان وثالث. فهذا البخارى يروى عن عائشة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده. يفعل ذلك ثلاث مرات(٢).

أليس هذا ترتيب المصحف كما ترى؟

وهاك الدليل الثالث الذى أرى عينيك تسألنى عنه ولسانك يكاد يطلبه: روى ابن أبى شيبة فى مصنفه أنه عليه السلام قرأ بالسبع الطوال فى ركعة. فها هو أمامك ترتيب من أول القرآن وترتيب من آخره لا يخالف ما جمعوه فى شئ. أيكفيك هذا أم تريد مزيداً؟

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده من «حديث أوس بن أوس الثقفى» حديث رقم (١٥٧٣٣) جـ ٤ ص ٩ من الطبعة الميمنية المرتب عليها المعجم المفهرس.

(٢) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «فضل المعوذات» حديث رقم (٥٠١٧).

قال : أوتظن الأمر بهذه السهولة؟

ثم تركنى وأخذ يقلب فى رفوف مكتبته ثم أخرج كتاباً وفتحه وقال لى : لن أسألك ولكن أقرأ أنت بنفسك من ها هنا .

فقرأت : قال ابن أبى أشتة فى كتاب المصاحف : هذا تأليف مصحف أُبى : الحمد ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام ، ثم الأعراف ، ثم المائدة ، ثم يونس ، ثم الأنفال ، ثم . . .

قال مبتهجاً : حسبك ! قف كما أنت وأقرأ لى أيضا هنا .

قلت : كما تريد . وقال : تأليف مصحف عبد الله بن مسعود : الطول : البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة ويونس والتين وبراءة والنحل وهود ويوسف والكهف و . . . .

قال برنة سخرية وابتسامة فرحة : ما تقول أنت الآن؟ لو كنت مكانك لما حرت جواباً ولسلمت واستسلمت .

فهذا ترتيب السور فى مصحف أُبى بن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود – وهما من هما – لا يتفق مع ترتيب المصحف الذى جمعه زيد فى شئ . أما آن لك أن تعترف أن هذا الترتيب منهم إنما كان رأياً رأوه وطريقة انتهجوها من عند أنفسهم؟

ضحكت قائلاً : لا . بل . . . . . .

فانتفض محتداً : أراك تعاند وتكابر ولا تريد أن تسلم بشئ . أما إنى قد التزمت وعدى معك وأقررت لك بما ليس فيه شك ولا ريب . لكنك تابى إلا الانتصار دائما وكأنه يعز عليك أن يعلو ما أراه فوق ما تراه . أفترى ذلك من الإنصاف والحق فى شئ؟

قلت : لا تغضب ولا تحمل علىّ ! فإنى ما أريد الانتصار لنفسى ، وإنه لحبيب إلىّ أن يكون ما تقوله سديداً وما تراه رشيداً . ولكن الحق فوق ما أحب .

فهدأ نفسك وكن – كما عهدتك – صبوراً لا تبالى بالحق أنى وجدته أن تأخذ به.

قال: قد هدأت. فأين هو الحق؟

قلت: أجبنى أنت! فى كم سنة نزل القرآن؟

قال: فى بضع وعشرين سنة.

قلت: إذاً فلم يكن كتاباً يُملى فى مدة وجيزة ليفرغ منه كاتبوه مرتباً كما يملى عليهم؟

قال: ساجاريك فيما تقول.

قلت: هؤلاء الصحابة، ألم تقل من قبل إن الحياة كانت تموج بهم ومن حولهم: غزوات وسرايا وبعوث وإقامة مجتمع ودعوة كل منهم أهله وعشيرته؟

قال: بلى! قلت هذا.

قلت: فهذا الصحابى أو ذاك كان يأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام فتنزل السورة فيحفظها ويكتبها عنده، ثم يخرج فى الغزو أو فى بعث أو لقبيلته وعشيرته.

قال: ماذا فى ذلك؟

قلت: هذا الصحابى إذا مكث فيما ذهب إليه أسابيع أو شهوراً ثم عاد أيكون القرآن قد توقف لا ينزل حتى يعود هو؟

قال: لا بل يتوالى وما يتوقف.

قلت: فلو كنت مكان الصحابى الذى عاد ورأيت حين عودتك سورة تنزل فماذا تفعل؟

قال: كنت أكتبها وأسجلها.

قلت: نعم! فأنت الآن قد كتبتها وسجلتها فى مصحفك أو كتابك الذى

تكتب فيه. فماذا عن السور التى فاتتك فى الشهور التى قضيتها بعيداً عن مكان الوحى؟

قال: أبحث عنها عند غيرى.

قلت: ثم؟

قال: أكتبها وأسجلها.

قلت: ها قد حُلت المسألة دون أن تغضب وأنت الذى حللتها لا أنا. فأنت كتبت سورة وخرجت شهوراً ثم عدت فوجدت سورة تنزل حال عودتك فكتبتها، ثم تعقبت ما فاتك فكتبته. وغيرك خرج فى زمن آخر، وغيركما كثير. وكلٌ يكتب ما يجده. فكيف يتفق إذن ترتيب؟ إن البديهة ألا يتفق. أليس كذلك؟

قال: بلى! لكن مازال الحل بعيداً. فإنك كعادتك تفيض فى نصف المسألة وتغمض عينيك عن نصفها الآخر. فإذا كان بعض الصحابة يفارقون النبى ويبتعدون عنه ثم يعودون، فهناك غيرهم لا يفارقونه فى سفر ولا حضر، فى حِل أو ترحال. فلماذا اختلفت مصاحف هؤلاء أيضا؟

قلت: نعم. هؤلاء كانوا يلازمون النبى عليه الصلاة والسلام ويكتبون ما ينزل سورة سورة لا تفوتهم سورة. فانظر أنت فى هذه الحالة كيف يكون ترتيب ما يكتبونه؟

قال: يكون على ترتيب نزول السور. هذه بديهة لا تستحق أن تسألنى عنها.

قلت: إذاً فقد حللت أنت نصف المسألة الآخر. قل لى: أترتيب المصحف كما جُمع كترتيب النزول؟

قال: لا.

قلت: ها قد وصلت. فترتيب النزول إنما جاء حسب الحوادث والوقائع

تعليقاً، أو بياناً، أو جاء حسب الاستفهام والتساؤل رداً وإجابة. فهو شئ وترتيب المصحف شئ آخر.

قال: هذا عجيب!

قلت: وما العجيب؟

قال: إذا كان الصحابة الملازمون للنبى رتبوا السور كما نزلت، ومن لم يكن ملازماً رتبها كيفما اتفق له، فمن أين جاء زيد بترتيب السور على النحو الذى فعله فى المصحف؟

قلت: من النبى ﷺ نفسه.

قال: إنك لتجيب وكأن زيداً كان يسمع وحده ويكتب وحده.

قلت: لا. ولكنه كان ألزم كتاب الوحى للنبى عليه الصلاة والسلام وأكثرهم تحرياً فى الكتابة وأوثقهم عند النبى فى التسجيل. أما ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام حين أراد أن يتعلم أحد أصحابه العبرية ليأمن شر اليهود على القرآن لم يختر لذلك إلا زيداً؟

قال: وما علاقة هذا بذاك؟

قلت: ألا يدلك ذلك على مبلغ ثقة النبى عليه الصلاة والسلام فيه، ويدلك على ارتباط كتابة القرآن والمحافظة عليه وتأمينه به؟

قال: ما زلت لم تقل لى: من أين جاء زيد بهذا الترتيب؟

قلت: من النبى ﷺ. اقرأ أنت فى البخارى.

قال: عن أبى هريرة قال: كان يُعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض. وكان يعتكف فى العام عشراً فاعتكف عشرين فى العام الذى قبض(١).

قلت: فكما ترى كان النبى عليه الصلاة والسلام يراجع القرآن على جبريل

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» حديث رقم (٤٩٩٨).

بترتيبه الذى أراده الله له وكما هو محفوظ فى اللوح المحفوظ، ثم بعد ذلك يعرضه النبى ﷺ على زيد، ويراجعه زيد عليه كما هو فى ترتيبه وكما أخبر زيد بذلك نفسه.

فزيد - كما ترى - ما زاد على أن رتب القرآن فى المصحف كما سمعه من النبى عليه الصلاة والسلام فى العام الذى توفى فيه وقد اكتمل القرآن واستقرت نجومه فى مكانها المراد لها.

قال: إذاً فآيات القرآن مرتبة كما جُمعت فى حياة النبى؟

قلت: نعم.

قال: وكذلك السور؟

قلت: وهذه أيضا نعم.

قال: أعطنى عقلك وقل لى: إذا كانت الآيات مرتبة، والسور مرتبة فما هو جمع القرآن هذا الذى تهيبه أبو بكر واستثقله زيد حتى يرى نقل الجبال أهون عليه منه؟

قلت: هب أنك كاتب مشهور طبق اسمه وأدبه الآفاق.

ابتسم قائلاً: ثم ماذا؟

قلت: ثم نشرت صحيفة كتاباً لك فى فصول متتابعة، كل أسبوع أو كل شهر فصلاً. وانتهى كتابك فاستغرق أعداداً كثيرة من الصحيفة.

قال: ثم؟

قلت: ثم لنعقد المسألة قليلاً. فهب أنك ممن تتخاطفه الصحف جميعاً، وأن مجموعة صحف فى أماكن مختلفة رأت أن تنشر كل منها فصلاً من كتابك دون بقية الفصول ثم انتهى الكتاب ومر زمان قل أو كثر. ماذا تفعل؟

قال: لا أظنك بحاجة إلى إجابة. أبادر من فورى إلى دار نشر تجمع الفصول المتناثرة لتكون كتاباً واحداً ليسهل قراءته وترويجه.

قلت: وهناك ما هو أهم من ذلك.

قال: وما هو؟

قلت: أن يحفظ الكتاب الواحد ما أنفقت من جهد فلا يضيع فى بطون الصحف ثم يُفقد، ويحتاج من يطالعه إلى أن يبحث عن هذه الفصول المتناثرة فى هذه الصحف المتباعدة فى هذه الأماكن المتنائية.

قال: هو ذاك.

قلت: فإذا جمعت دار النشر كتابك وضمت فصوله، أتكون قد زادت فى كتابك شيئاً أو نقصت منه أو غيرت فى نسبته إليك؟

قال: لا.

قلت: فهذا عين ما فعله زيد لم يزد عليه ولم ينقص. القرآن كان محفوظاً ومكتوباً فى رقاع ولخاف وعسب متفرقة، فما كان من زيد إلا أن جمع هذه المتفرقات وضمها معاً كما يحفظ هو ويحفظ غيره حتى يصير كتاباً واحداً ليسهل حفظه وقراءته، وكى يحفظ هذه المتفرقات التى هى لابد ضائعة مع الوقت. وإن لم تضع فهى كالفصول المتناثرة فى بطون الصحف من كتابك المزعوم.

قال: أراك تسوقنى بأمثلتك! لكن أفترى رجلاً واحداً هو زيد يكفى وحده للقيام بهذه المهمة العسيرة والخطيرة، ومهما كانت الثقة بقدره وعلمه؟

قلت: فإنه لم يكن وحده!

قال: قد عدت للمناورة مرة أخرى. إنك لا تزال تحدثنى عن زيد الذى شهد العرض الأخير للقرآن، وعلم الترتيب المفروض له، ثم بعد ذلك تقول لى: لم يكن وحده!

قلت: بلى لم يكن وحده. فإن أبا بكر قال له ولعمر: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شئ من كتاب الله فاكتباه.

قال: وإذا كان رجل واحد لا يكفى أفتظن يكفى رجلان؟ ما أراك فعلت شيئاً.

قلت: فكيف يكونان رجلين فقط وأبو بكر يقول: «من جاء كما بشاهدين»؟ فكل من جاء بآية وشهد عليها فهو شريك فى الجمع.

ثم ألا ترى أنهم - إمعاناً فى الحيطة وطلبا للنهاية فى التوثيق - لم يأخذا بآية إلا أن تكون مكتوبة أمامهم على شئ ومسجلة بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام، ثم يكون عليها شاهدان. فكتابة الآية الواحدة يتطلب دليلاً مكتوباً وحفظ شاهدين.

قلت مبتسماً: ألست ترى أن جمع القرآن بهذه الطريقة كان عملاً فذاً فى تاريخ توثيق وتدوين الكتب لا يدانيه ولا يقاربه كتاب آخر، بله يماثله.

قال: أراك ستدخل فى حديث القصائد والخطب العصماء ومازلنا لم ننته بعد. فإذا كنت قد وصلت فى حديث توثيق القرآن وجمعه إلى نهايته فمازال حديث الإحراق باقياً، وإذا كنت تجيد المراوغة والنفاذ من المزالق فما أرى لك هذه المرة منفذاً.

قلت: فما حديث الإحراق هذا؟

قال وهو يتثاءب: لا تكن عجولاً. إن له لمقاماً آخر.

* * *

قلت: اجلس وأخبرنى: ما حديث الإحراق هذا الذى توعدتنى به؟

قال: إنك كدأبك دائماً تنهى المسألة حيث تريد أنت أن تنتهى لا كما هى على حقيقتها وتظن أنى سأسلم لك هكذا؟ هات صحيح البخارى.

قلت: هاك هو.

وأخذ يقلب فيه وهو يقول: قد أفضت وأطلت فى توثيق القرآن وجمعه فى مصحف واحد وحشدت لى الشهود والأدلة، ثم وقفت وكان المسألة انتهت وأصبحت قضاءً مبرماً. ثم توقف فجأة وقال: انظر فلتقرأ أنت لا أنا.

قلت: كما تحب. «عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان

وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فافزع حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلىّ حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى نسخوا الصحف فى المصاحف ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[1].

قلت: ها قد قرأت.

قال: فما تقول؟ ما أظن لك جواباً!

قلت: فلنتأمل المسألة بروية. تعلم أن القرآن نزل على سبعة أحرف!

فما راعنى إلا أن مد يديه أمامه وقال صائحا: قف! مكانك! لا تتحرك! هذه مسألة أخرى لا أفهم كيف تكون، ولا أجدها مستساغة فى العقل. إذا كان القرآن نصاً ثابتاً ولم يتدخل فيه بشر بتبديل ولا تحريف، وتوثيقه لاشك فيه كما تقول، فلماذا يقرأ البعض بطريقة ويقرأ آخرون بأخرى؟ وكيف تريدنى أن أصدق أن هذه وتلك شئ واحد؟ إن ذلك لما يعسر فهمه على أى عقل.

قلت: هون عليك ولنعد إلى البداية وستجد أن الأمر واضح لا غموض فيه، وأن ليس فيه شئ يعسر فهمه أو قبوله فى عقلك.

قال: وما هى هذه البداية؟

قلت: أما أن القرآن نزل على سبعة أحرف فهذا مما لا شك فيه. خذ أنت البخارى واقرأ كما جعلتنى أقرأ.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «جمع القرآن» حديث رقم (٤٩٨٧).

قال: واحدة بواحدة. لا بأس! «عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أقرانى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف(١).

قلت: وأزيدك أنا: إن حديث الأحرف السبعة روى عن واحد وعشرين صحابياً. فلاشك إذاً فى ذلك، أم تظن أن هؤلاء جميعاً - على شرفهم - تواطئوا على ذلك ومع عدم حاجتهم إليه أو نسوا جميعاً. ذلك هو ما لا يسيغه عقل.

قال: ما زال الأمر عسيراً. ودع عنك تسليمك المطلق هذا وتأمل معى: إنى لأرى الأولى - فى ميزان العقل - أن يكون القرآن كلاماً واحداً لا اختلاف فيه، وما حدث فيه من اختلاف إنما كان لاختلاف لهجات العرب ولغات قبائلها. فكلٌ قرأ كما يعرف وكما يطيق لسانه، وليس فى الأمر توقيف ولا غيره.

قلت: ألا ترى أنك أنت الذى تفعل ما تتهمنى به وترسل القول بلا بينة. وما أظنك إلا توافقنى أن أمراً بهذه الخطورة لا يثبت بالتخمين.

قال: رويدك! هاك الدليل. وما راعنى إلا أن أخرج ورقة من جيبه ثم قال: اقرأ.

ابتسمت قائلاً: يا لك من أريب! لقد أعددت للأمر عدته واستدرجتنى إلى هذا الحديث.

روى البخارى أن عمر بن الخطاب قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إنى سمعت هذا يقرأ

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «أنزل القرآن على سبعة أحرف». حديث رقم (٤٩٩١).

بسورة الفرقان على حروف لم تقرانيها. فقال رسول الله ﷺ: أرسله. اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت ثم قال: اقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التى أقرانى. فقال رسول الله ﷺ: وكذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه(١).

قال: أيعقل أن يختلف اثنان فى قراءة نص حتى يوشكا على الاقتتال، ثم يكون ذلك النص واحداً ويقال إنه وارد من السماء هكذا؟ ما أرى كما قلت لك إلا أن هذا اختلاف نشأ عن اختلاف لهجات القبائل ثم توارثه من بعدهم.

قلت: تمهل وترفق قليلاً! فما أرى إلا أن عجلتك ولهفتك إلى إثبات ما يعتمل فى نفسك جعلتك تخطئ حتى تأتى بالدليل يشهد عليك لا لك.

قال: علىَّ لا لى؟!

قلت: أولا: أما ترى أن عمر وهشام حين اختلفا ذهبا إلى النبى عليه الصلاة والسلام فأقر كلا منهما على قراءته. والنبى هو المرجع عند الاختلاف، وهو صاحب الوحى والحافظ له. ولو كان الاختلاف ناشئاً فقط عن السنة ولهجات وليس مأذوناً به من السماء لخطَّأ أحدهما - لا محالة - وصوب الآخر. أما أنه صوب الاثنين فلاشك فى أن اختلاف القراءة بإذن منه ﷺ، وبإذن جبريل عن ربه. أما ترى أنت أن الأمر توقيف لا شك فيه؟

ثانيا: لو كان الأمر فى اختلاف القراءة اختلاف لهجات القبائل، لكان الأولى بعمر وهشام ألا يختلفا وكلاهما قرشى ويتكلم لغة واحدة ولهجة واحدة.

ألا يدلك ذلك على أن النبى ﷺ هو الذى أقرأ كلاً منهما بقراءته رغم أنهما من قبيلة واحدة؟ ويؤكد لك أن أحداً منهما لم يأت بالقراءة من عند نفسه ولا من لُكنة لسانه، وإلا لاتفقا معاً وما كان بينهما من اختلاف.

قال: فإذا لم تكن هذه الأحرف هى لغات العرب ولحون قبائلها فماذا تكون؟

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «أنزل القرآن على سبعة أحرف». حديث رقم (٤٩٩٢).

قلت: بل هى لغات العرب ولحون قبائلها.

قال: إن أمرك لعجيب! إنك لم تكد تنتهى من قولك: إن هذه الأحرف موقوفة عن النبى مأذون بها منه ولا دخل لاختلاف ألسنة العرب فيها حتى عدت لتقول لى: بل هى لغات العرب ولحون قبائلها! وما أراك تثبت على قول واحد ولا تكف عن المداورة والمراوغة.

قلت: بل انتظر قليلاً! فإن عجلتك دائما تسبقك، فإنى لم أقل إن هذه الأحرف لم تكن لغات العرب وألسنتها، وإنما كان ما قلته إن هذا الاختلاف لم ينشئه اختلاف ألسنة العرب دون ضابط من النبى عليه الصلاة والسلام ومن الوحى نفسه.

وإنما هى لغات العرب نزل بها القرآن على اختلافها من السماء، ولم يأت القرآن موحداً ثم فككته وفرقته ألسنة العرب.

ألست ترى أن الفرق بين الأمرين دقيق لكنه خطير واسع البون كالمسافة بين السماء ووحيها وبين الأرض وتباين ألسنة أهلها؟

قال: ولماذا كل هذا العنت؟ أما كان الأجدر والأحكم أن يكون القرآن واحداً لا اختلاف فيه ولا أحرف ولا ألسنة؟

قلت: بل الأجدر والأحكم أن يكون هكذا. فقل لى: أئذا كنت تريد القرآن بلغة واحدة لا يحتمل غيرها فبأيها كنت تريده؟

سكت قليلا ثم قال: فلنقل بلسان قريش.

قلت: هذا إذا كنت قرشياً. فماذا لو لم تكن قرشياً؟

فتأمل نفسك هذيلياً أو قحطانياً أو ... أو، أكنت تسلم للقرآن ولو صدقته أم تقف عزة قبيلتك وولاؤك لها حائلاً بينك وبينها وبين القرآن.

قال: على ما أعلم من أنفة العرب وحميتهم وقبائليتهم التى تكاد تكون لغوية الحدود لأحجمت وقبيلتى وما أقررت لقريش وحدها بهذا الشرف.

قلت : فماذا لو كرم القرآن قبيلتك فنزل منه ما هو بلحنها ولغتها وما يكاد لا يعرفه من العرب غيرها .

قال : إذاً لتاهت قبيلتى على العرب بنزول وحى السماء بلحنها ولغتها .

قلت : وأيضاً! لانفتحت له قلوبكم وأيقنتم إيقاناً لا ريب فيه أنه من السماء . وفوق ذلك لامتزجت ألسنة العرب جميعاً وصارت لساناً واحداً، ولصارت لكل قبائل العرب جنسية لغوية عامة تجمعهم فتوحد ألسنتهم ونفوسهم وتألف قلوبهم وتنزع عنهم أنفة وغارات الجاهلية التى أقررت أنت نفسك أنها لغوية المنشأ والحدود .

قال : أراك تعطينى درساً عن أثر اختلاف اللغات فى وضع الحدود والفواصل بين المجتمعات . فإنى لأعلم ذلك ولست بحاجة لدرسك لأعرف أن حدود الأمم والشعوب هى حدود لغاتها، وأن مناطق التمايز اللغوى هى مناطق التمايز النفسى والاجتماعى .

قلت : فإليك الأمثلة التى تحبها لتدلك على دور اختلاف القراءات والحروف فى امتزاج العرب اللغوى والنفسى . روى عن على بن أبى طالب أنه قال : نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر، أى : همز . ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمز على النبى ما همزنا .

قال : فلنقل : إن هذه الأحرف واللغات هى توحيد لقبائل العرب ونفوسها فى وحدة لغوية عامة حدها القرآن نفسه . لكن ذلك يناقض من جهة أخرى إعجاز القرآن الذى يقولون ويفيضون فى أنه لغوى فى المقام الأول . أيكون الإعجاز بحرف وقراءة أم بغيرها؟ فإذا كان فى أحدها فكيف يكون فى الأخرى؟

قلت : بل الإعجاز فى هذه وتلك والإعجاز فيهما معاً . فها هى كتب التاريخ أمامك وفيها كل ما قالوه فى القرآن، هل علمت أحداً من العرب ادعى نقص القرآن باختلاف قراءاته؟ ولو وجدوا ذلك لما سكتوا عنه وهم مترصدون له، بل لاهتبلوه وأشاعوه حتى يستطير فى المشارق والمغارب .

ألا ترى أن القرآن كأنه يقول لهم: هذه قراءة وهذه أخرى وهذه وهذه، فاختاروا أيها وائتوا بمثلها إن استطعتم. أما ترى أن هذا أمعن فى التحدى لهم وأنكى عليهم وأبين فى إظهار عجزهم وأفضح لهم فى العالمين؟

قال: فإنى معك إلى النهاية! إن ما ذكرته لصحيح إذا كان اختلاف هذه الأحرف والقراءات مقتصراً على وجوه الأداء وكيفية النطق وما لا يختلف فيه المعنى كتحقيق الهمزة وتخفيفها، وكالفتح والإمالة والتقليل، وكالتفخيم والترقيق، وكالمد والقصر. فما قولك فى الاختلاف الذى يكون فى الكلمة غير الأخرى فيتغير المعنى ويتضارب...

قاطعته قائلا: مهلا.. مهلا! أعلمك واسع الإطلاع تضرب فى كل معرفة بسهم وسهام. ولكن لك عندى شهادة، إنى لم أكن أعلمك واسع الاطلاع إلى هذا الحد، تدقق فى كل مسألة حتى تبدو وكأنك من خواصها.

قال مبتسماً: أتظن أن مجاملتك ستسد علىَّ الطريق كما تفعل دائماً. هيهات! هيهات! ماذا عن الكلمة تكون غير الأخرى؟ أليس هذا مما يجعل المعنى مختلفاً بل متضارباً. وإذا به يخرج ورقة من جيبه ويفردها ثم يقول: كيف تكون ﴿ **فَتَبَيَّنُوا** ﴾ [الحجرات: ٦] مثل ﴿ **فَتَثَبَّتُوا** ﴾؟

ألا تخالف ﴿ **نُنشِزُهَا** ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ﴿ **نُنْشِرُهَا** ﴾؟ وماذا عن ﴿ **رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ [سبأ: ١٩] و﴿ **رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾؟

قلت: يالك من داهية! لقد أخذت للأمر أهبته وأعددت له عدته من قبل حتى تفاجئنى كل حين بورقة تخرجها من جيبك كالحواة.

على أن ما جئت به لا يستدل لك بشئ على ما تقوله! فإذا كان الإعجاز لا يختلف بوجوه القراءة والأداء التى لا يتغير بها المعنى كما ذكرت أنت نفسك، فإن الإعجاز ليكون بهذا الاختلاف الذى يتغير فيه المعنى أتم وأكمل.

قال: أتم وأكمل؟! إنك لتشقق الكلام وتجمله وتدور حول الكلمات

وتزينها وما يجدينى ذلك. دع عنك المدائح وقل لى: أما تقتضى البلاغة والكمال اللغوى أن توجد كلمة واحدة لا تغنى عنها غيرها فى مقامها ولا تقوم بمعناها؟ فكيف تكون ﴿ تَبَيَّنُوا ﴾ كـ ﴿ تَثَبَّتُوا ﴾؟ فإما أن تكون هذه أو تكون تلك، أما هما معا فلا أظن ذلك إلا من اختلاف الرواة.

انظر إلى الكلمتين. إنك إن نزعت عنهما النقط تشابهتا حتى صارتا كالكلمة الواحدة. واغلب الظن عندى أن من كتبوها وجدوها هكذا، فاستشكلت عليهم هل هى ﴿ تَبَيَّنُوا ﴾ أم ﴿ تَثَبَّتُوا ﴾، فجعلوها هكذا مرة وهكذا مرة. أما ترى أن هذا هو الأصوب فى العقل وهو الأقرب للمنطق والمعقول؟

قلت: على رسلك! ولنفكك المسألة خطوة خطوة.

قال وكأنه يستسلم: لا أدرى كيف ستحل مشكلة كهذه بعيداً عن وسائلك البهلوانية؟

قلت: أما أنهم وجدوها خالية من النقط فحاروا فيها فنقطوها وكتبوها هكذا وهكذا، فلا.

قال: ولِمَ لا؟

قلت: لأنك بعجلتك نسيت ما قطعنا الساعات الطوال فى التنقيب عنه والحديث فيه. أنسيت أن القرآن لا يُعول فيه على الكتابة فقط، ولم يقتصر أحد منذ جمع زيد القرآن بأمر أبى بكر على مجرد التسجيل والكتابة؟ أما تذكر الشاهدين اللذين اشترطهما زيد على كل آية ليسجلها ويكتبها، وأنه لم يكن يكتب شيئاً إلا أن يستوثق أنه موصول إلى النبى عليه الصلاة والسلام مأخوذ عنه؟

فها أنت ترى أن الأخذ بالقرآن وبوجه القراءة لا يكون إلا باستفاضتها سماعاً ورواية من الثقات المأمونين، لا بمجرد كلمات مكتوبة متروكة لاجتهاد كل قارئ وما يراه.

قال: فإذا كانت هذه القراءات والأحرف جاءت كما هى تواتراً عن النبى بالسماع والرواية فماذا عن المعنى؟ كيف يكون الإعجاز؟ فإنه إن كان بالأولى لم يكن بالثانية، وإن كان بالثانية لم يكن بالأولى.

قلت: بل الإعجاز بهما معاً.

قال: ها قد عدت إلى المراوغة! أما تقولون إن الإعجاز يكون بالكلمة فى موضعها لا يغنى عنها سواها؟

قلت: بلى!

قال: كيف إذاً؟

قلت: أنت رجل طُلعة عالم بخبايا النفس وشئونها، وأنت بعد ذلك محبب ألوف، فلو جاءك رجل يستنصحك ويسترشد برأيك وقال لك: إن صديقى فلاناً أتانى فقال لى: إن صديقى الآخر علاناً يقول كذا أو كذا، وما علمته من قبل إلا مخلصاً وفياً، وإنى لحزين أشد الحزن فما تشير على؟ ماذا كنت تقول وما نصيحتك له؟

قال: ما أدرى ما صلة ذلك بما نحن فيه، ولكن أمرى إلى الله. كنت أقول له: قبل أن تحزن وتغضب اذهب إلى صديقك علان هذا فاعرض عليه الأمر وتبين منه حقيقة ما حدث.

قلت: إنك لرائع! فإذا ذهب الرجل إلى صديقه علان وعرض عليه الأمر فقال: ما حدث ذلك منى وما قلته وإنك لتعلم محبتى لك ومنزلتك عندى.

فإذا قال لك الرجل: إنى لا أدرى ما أفعل مع صديقى فلان ولا أدرى لماذا اختلق هذا الأمر، فلو أنك رجل منصف حكيم - كما أعلمك - بم كنت تشير عليه؟

قال: لا أدرى متى تنتهى هذه الألغاز؟ حسناً! كنت أقول له: إن واحداً من صديقيك كاذب لا محالة فتأكد من ذلك بالشهود يشهدون لهذا أو لذاك.

قلت : بورك فيك من حكيم!

قال : أراك تسخر منى .

قلت : بل إنك حكيم جد حكيم .

قال : مازلت لا أفهم ما هذه الأحجية وما سببها بما نحن فيه؟

قلت : بل هى عين ما نحن فيه . فانظر : إن القرآن يقول : ﴿ **إن جاءكُمْ فاسقٌ بنبأٍ** ﴾ [الحجرات : ٦] فماذا؟

قال : ﴿ **فتبيَّنُوا** ﴾ أو ﴿ **فتثبَّتُوا** ﴾ .

قلت : فلنجعلها واحدة واحدة .

قال : فليكن! ﴿ **فتبيَّنُوا** ﴾

قلت : أى فتحروا الأمر من الجهة الأخرى ولا تقتصروا على سماع طرف واحد فى الدعوى، واستوضحوا كل ما حدث وابحثوا عن تفاصيله فربما قيل لكم شئ وخُبات أشياء . تماما كما نصحت الرجل بالتبين والتحرى .

قال : فماذا عن ﴿ **فتثبَّتُوا** ﴾؟

قلت : تماماً كما طلبت أنت من صديقك أن يتأكد بالشهود على صدق هذا أو ذاك . فالقرآن يقول : إذا تبينتم وتحريتم الأمر واستقصيتموه من جميع جوانبه وأطرافه ، فتأكدوا وتثبتوا من صحة جانب من هذه الجوانب بالدلائل والشهود .

قال : فهذه أحجيتك؟

قلت : نعم! أتراك لو نصحت الرجل بأحد الأمرين دون الآخر أتكون نصيحتك كاملة عادلة؟ أو لست ترى الآن أن الإعجاز بالكلمتين أتم وأكمل؟

فقل لى : لو قال ﴿ **فتبيَّنُوا** ﴾ فقط؛ أما جاز أن يأتى مستدرك فيقول : إن أمراً كهذا بابه التثبت والتأكد فما فائدة البيان إن لم يكن هناك تأكد منه؟

قال : بلى !

قلت: فلو قال: ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾؛ أما جاز أن يأتى بليغ فيقول: وهل يكون التثبت إلا بعد معرفة الوقائع كاملة وتبيانها والإلمام بكل جوانبها؟

قال: أراك تريد أن تسوقنى باحجياتك والغازك إلى حيث تريد.

قلت: فإنك تعى ذلك وتدركه. فلو كان ما أقوله مجافياً للصواب أو تجد فيه شيئاً فلا تسايرنى.

قال: هيه! أكمل.

قلت: فلو جاء القرآن وقال ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وحدها أو ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾ وحدها، أما جاز أن يأتى ضليع مدقق مثلك يقف عند كل كلمة لينقدها فيقول: إن البلاغة والتمام والكمال لا يكون إلا بتبين الأمر والتثبت منه فى آن واحد.

قال: قد سلمت! وها أنا ذا أرفع يدىّ

قلت: إن تسليمك هذا لمما يزيدنى إعجاباً بك وتقديراً لك.

فها أنت ترى أن القراءتين تممتا المعنى، وأن الكلمة بوجهيها تشابكت أطرافها معاً والتحمت حتى صارت سواراً محكماً وحلقة منيعة تسور المعنى وتحيطه من كل جانب، فلا يجد أحد إلى النفاذ إليه سبيلاً ولا إلى نقده طريقاً. وهما بعد ذلك كلمتان يسيرتان تحتويان كل هذه الأحجية الطويلة العريضة كما تسميها أنت. أليس هذا هو عين الإعجاز؟

أما عن ﴿ نُنشِزُهَا ﴾ و﴿ نُنشِرُهَا ﴾، و﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ ﴾ و﴿ رَبُّنَا بَاعَدَ ﴾

قاطعنى قائلا: ترفق ترفق! ما إن قلت سلمت حتى وجدتها فرصة سانحة تريد أن تهتبلها فلا تتركها! دعك من هذا! لقد خضت بى بحراً مضطرباً ولجة عميقة. فلنعد إلى الساحل.

قلت: عدت إلى عنادك ثانية. فأين تريد أن ترسو؟

قال: إذا كانت هذه الأحرف والقراءات واردة عن النبى، فلماذا فزع حذيفة من اختلاف قراءة العراقيين والشاميين؟ ولماذا أمر عثمان بنسخ المصحف؟

ولماذا قال لهم: لأنه نزل بلسان قريش؟ فكيف تكون القراءات متواترة عن النبى ثم يقول خليفته: إنه نزل بلسان قريش فقط؟

قلت: دائما تتعجل وتتعجلنى معك. اختر واحدة منها لنبدأ بها.

قال: كما تريد. فلماذا فزع حذيفة ونسخ عثمان المصاحف إذا كانت قراءات العراقيين والشاميين واردة عن النبى؟

قلت: ومن قال إنها واردة عن النبى عليه الصلاة والسلام؟

قال: عدت إلى مراوغتك مرة أخرى. تقول القول ثم لا تلبث أن تعود فيه بعد أن تفرغ منه!

قلت: أمهلنى! كم كان حجم الدولة الإسلامية فى عهد عثمان؟

قال: واسعة شاسعة.

قلت: أكل من فيها كان عربياً قُحاً خالصاً؟

قال: لا. بل فيهم العرب الخلص الخارجون من الجزيرة، وفيهم غيرهم من أهل البلاد المفتوحة.

قلت: أكل هؤلاء يحسن اللغة العربية كأهلها؟

قال: هذا سؤال ساذج! فكيف يحسنونها جميعاً وهم لم يعرفوها إلا من سنين قلائل.

قلت: فإذا هم تكلموا العربية أيتكلمونها فصيحة أم بلُكنتهم وعُجمة ألسنتهم وثقل العربية عليها؟

قال مبتسماً: يتكلمونها بما تريدنى أن أقوله.

قلت: وهكذا كانوا يقرءون القرآن بلُكنتهم وعُجمة لسانهم وثقل العربية عليه.

قال: وماذا بعد ذلك؟

قلت: قل لى: إذا قرأ القرآن إنجليزى وفرنسى وكلاهما لا يحسن العربية إلا قليلاً، أتكون لُكنة وانحراف لسان هذا فى العربية كذاك؟

قال: لا. فكل منهما له طريقة فى النطق وإخراج الحروف، وقدرته على تحديدها تنطبع على قراءته.

قلت: وكذلك ما حدث. فكل قوم قرأوا حسب ما يطيق لسانهم. وحين التقوا حسب كل منهم أن صورة لسانه المعوج على القراءة هى القرآن لا غيرها، فاختلفوا وتقاتلوا، ففزع حذيفة وأراد عثمان أن ينسخ لهم نُسخاً تكون فى المدن الكبرى يرجعون إليها ويضبط كل قوم قراءتهم عليها.

قال: أتظن أنك ستلهينى بأمثلتك هذه. فإذا كان فى البلاد المفتوحة من لا يحسن العربية حتى لينحرف لسانه فى القرآن ويقرأه بصورته، فإن منهم أهل العربية ومنهم من أجادها حتى صار كاهلها. وهؤلاء لم يكونوا لتخطئ ألسنتهم فى قراءة القرآن ولا غيره.

فكيف يختلف هؤلاء أيضاً إلى حد الاقتتال إذا كان كلٌ منهم يقرأ بقراءة متواترة؟

قلت: إنك لرجل سمح كريم. وما أدرى كيف أشكرك! فدائما ما تعطيني السؤال وفيه الإجابة عليه. نظر إلىَّ مستغرباً متشككاً وقال: ماذا فى جرابك؟

قلت: بل فى جرابك أنت؛ فإن هؤلاء الذين اختلفوا لم يكونوا على علم بأن هذا الاختلاف وهذه القراءات متواترة عن النبى عليه الصلاة والسلام.

قال: أو يعقل هذا؟

قلت: بل هو العقل كله. فالعرب ومن يحسن العربية خلاف صحابة النبى عليه الصلاة والسلام لم يروه عليه الصلاة والسلام ولم يتلقوا عنه، ولم يعرفوا وجوه القراءة كلها، ولم يكن قد مضى زمن تفشو فيه هذه الوجوه كلها ويعرفها أهل الأمصار جميعاً ويدونون بها ولها العلم كما حدث بعد ذلك.

قال: فما الذى حدث إذا؟

قلت: أخذ أهل كل مصر بقراءة من نزل عندهم وظن أن هذه هى القراءة المتواترة عن النبى ﷺ لا سواها. فلما التقوا وقرأ كل منهم بما سمع وما يثق فيه ثقة مطلقة، أخذ كل منهم يشك فى قراءة الآخر ويدعى أن قراءته وحدها هى الواردة عن رسول الله ﷺ، فتقاتلوا وكل منهم يظن أنه بذلك يدافع عن دينه ويحافظ على كتاب الله من التحريف. ولو علموا أنها كلها قراءات قرأ النبى عليه الصلاة والسلام وأقرأ بها لما تقاتلوا.

قال: مازالت أمامك صخرة لا أظنك تستطيع حتى زحزحتها. فقل لى: كيف إذاً يكون ما قلته صحيحاً وعثمان يقول: إنه إنما أنزل بلسان قريش. لا أظنك تستطيع الكلام. هذا اعتراف صريح بأن القرآن إنما هو لغة واحدة هى لغة قريش.

قلت مبتسماً: دائما لا تلقانى إلا بالصخور. قل لى أنت: أئذا كان لك صديق جمع من خصال الحمد كثيراً، فهو كريم، وهو عاقل، وهو ذكى، وهو محبوب، ولكن كرمه وسخاء يده غلب عليه فلا يذكر الكرم إلا ذكر هو ولا يذكر هو إلا وثب إلى الذهن كرمه.

قال: عدت لأحجياتك!

قلت: أينفى وصفه بالكرم كلما ذكر أنه شجاع وعاقل وذكى ومحبوب؟

قال: لا.

قلت: فكذلك القرآن، فإن عثمان قال: إنه إنما نزل بلسان قريش لأن الغالب فيه لسان قريش، ولا يمنع ذلك وجود لغات أخرى فيه، كما لا يمنع وصف صاحبك بالكرم باقى الصفات عنه.

قال: لا تأخذنى على غرة! أتظن أنى سأصدقك بمثل هذا اللف والدوران؟

قلت: لا عليك ولكن تأمل معى هذه القصة.

قال: قصص ثانية؟!

قلت : لا تتزعج ! إنها قصيرة . ابن عباس رأى أعرابيين يختصمان فى بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها . فقال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر : ١] فمعناها ابتدأ .

ويقول هو أيضاً : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك . أى : أحاكمك .

فقل لى : أتدرى من ابن عباس؟

قال : سؤال غريب ! أتسألنى عن امرئ موقعه من التاريخ حيث لا يجهل؟ فهو ابن عم النبى ويقولون : إن النبى دعا له بالحكمة والتفقه فى القرآن .

قلت : ومع ذلك فإن ابن عباس القرشى الصميم حبر القرآن العالم بالعرب وأشعارها ولغاتها لم يكن يعلم معنى ﴿ فَاطِرِ ﴾ ولا ﴿ افْتَحْ ﴾ . فهل ترى أن لو كان قرشى يعلم هذه الكلمات ومعناها أيمكن أن يكون غير ابن عباس؟

قال : لا . بل أظنه أولى بمعرفتها والعلم بها .

قلت : قد حكمت أنت وقطعت إذاً أن فى القرآن مالا يعلمه أعلم قريش، فهو إذاً غير قرشى . وما أظنك تستطيع التفنن فى السؤال كما تفعل دائماً؛ فإن هذه الكلمات لا اختلاف بين القراءات فيها .

قال : أتظن المسألة انتهت والأمور قد استقرت لك؟ إنك لواهم !

قلت : هيه ! ماذا تخبئ لى أنت فى جرابك؟

قال : إذا كانت القراءات متواترة عن النبى وكلها عنه وارد، فإن ذلك فى السماع والحفظ كما قلت أنت لا أنا فقل لى أيها الذكى الفطن : كيف كانت اللجنة التى شكلها عثمان من زيد ورفاقه لنسخ المصاحف تستطيع أن تكتب كل هذه الوجوه فى المصاحف التى نسخوها وهى لا تتعدى الخمسة أو السبعة على أكثر الأقوال؟ فإما أنهم لم يسجلوها فتكون قد ضاعت ولا سند لها، وإما أن يسجلوها . فكيف يسجلونها والمصاحف تعد على أصابع اليد؟

قلت: لم تأت فى جمل ! فهذا أمر سهل وقد أجبت أنت عنه من قبل.

قال أجبت عنه أنا! ألن تكف عن هذه الألغاز؟

قلت: ليس فى الأمر ألغاز. أتذكر الكلمات التي سألت عنها من قبل وقلت كيف تكون واردة كلها وهي مختلفة؟ قال: ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾، ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾؛ ﴿ نُنشِزُهَا ﴾ و﴿ نُنشِرُهَا ﴾ و﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ ﴾ و﴿ رَبُّنَا بَاعَدَ ﴾؟

قلت: هى بعينها! فإنهم كانوا يكتبونها وأمثالها عارية من النقط والشكل فى المصاحف هكذا: ﴿ فسبوا ﴾، ﴿ بسرها ﴾، ﴿ باعد ﴾، فتحتمل بذلك الوجهين وكلٌ يقرأ بما أثبته سماعاً ورواية. فها أنت ذا ترى أنه لا تعارض بين السماع والرواية وبين التسجيل والكتابة.

قال: لم تجبنى! فإنك لم تختر من الأمثلة إلا ما تريده ويوافقك.

قلت: فماذا تريد؟

قال: فماذا إذا كانت القراءتان متواترتين وهما مع ذلك لا يمكن التفرقة بينهما بالنقط والشكل، ولا يضمهما رسم واحد، ولا يمكن كتابتهما بطريقة واحدة؟ فهم إما أن يكتبوا هذه أو يكتبوا تلك.

قلت: بل يكتبونهما معا، فإنهم يكتبون الكلمة برسم فى مصحف وبرسم آخر فى مصحف آخر.

قال محتجاً: البينة! البينة! دائما ما تنساق فى الكلام المرسل وتنسى البينة!

قلت: فهاك البينة. فإنهم كتبوا: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [البقرة: ١١٦] بسورة البقرة بالواو فى كل المصاحف وكتبوها دون الواو فى المصحف الشامى.

قال: هذا مثال؟!

قلت: وإليك الثانى. فإنهم كتبوا ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ [التوبة: ٨٩]

في آخر براءة هكذا في كل المصاحف وكتبوها بزيادة ﴿من﴾ في المصحف المكي.

أرى عينيك تبرقان، فإليك المثال الثالث قبل أن تسألني عنه. فإنهم كتبوا ﴿ووصّىٰ بها إبراهيم بنيه﴾ [البقرة: ١٣٢] بدون ألف في بعض المصاحف وزيادة ألف ﴿وأوصىٰ﴾ في بعضها.

وهكذا فكل القراءات مسجلة كتابة، ومحفوظة سماعاً ورواية.

قال: فهم قد نسخوا هذه المصاحف من النسخة التي جمعتها اللجنة الأولى التي شكلها أبو بكر برئاسة زيد؟

قلت: نعم!

قال: وهم نسخوا المصاحف بحيث تحتمل وجوه القراءات جميعاً؟.

قلت: نعم!

قال: إن هذا يعني أن هؤلاء الأربعة الذين أوكل إليهم عثمان مهمة نسخ المصاحف كانوا يعلمون القراءات جميعاً. أما ترى أن ذلك لا يستقيم في العقل؟ بل هو يتناقض مع ما تقوله من أن أحداً في ذلك العصر لم يكن يعلم وجوه القراءات كلها، بل يعلمون فقط مجرد ورودها عن النبي.

قلت مبتسماً: هذه صخرة صغيرة وعناء إزالتها يسير. ناولني هذا الكتاب إلى جوارك.. عن يمينك قليلاً.

قال وهو ينظر إليه ويناولني إياه: المقنع في رسم مصاحف الأمصار.

قلت: لأبي عمرو الداني؛ إمام القراء وشيخ المقرئين.

انظر ماذا يقول هنا: «كانوا إذا اختلفوا في آية آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيُرسَل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكانا».

أرأيت إلى مثل هذه الدقة المتناهية؟ فها أنت ترى أن هؤلاء الأربعة إنما أشرفوا على التدوين وقاموا بالنسخ والكتابة فقط، أما الآيات ووجوه قراءتها فاشترك فيها كل من سمع من رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الدولة الإسلامية وتحت إشراف رأس الدولة نفسه.

ترى أبقيت صخور أخرى تضعها فى طريقى كما تفعل دائماً؟

قال: بل أمامك جبل لا نفاذ منه لضوء ولا ماء!

قلت: نسأل الله السلامة من جبالك. فما هو جبلك هذا؟

قال: إحراق المصاحف. كيف يحرق عثمان المصاحف؟ إذا كانت وجوه القراءة المتواترة مثبوتة مكتوبة فيما نسخته اللجنة الموكلة بذلك، فلماذا أحرقت هذه المصاحف وما فيها إلا القراءات؟

ألم أقل لك إنه جبل شديد الرسو غائر الأوتاد لا نفاذ فيه ولا إليه.

قلت: بل هو جبل من الهواء لا يحجب ضوءً ولا يمنع ماءً.

قال محتجاً: ما أدرى ما ستقول والمصاحف أحرقت.

قلت: ومن قال إن المصاحف أحرقت؟

قال: إنك لعجيب الشأن! أتريدنى أن أصدقك وأكذب عينى؟ أم تراك لا تعترف بالبخارى وأنت قد أغرقتنى فيه؟

قلت: لا هذا ولا ذاك! ولكن قل لى: ما هو المصحف؟

قال: أهذا سؤال أم شَرَك؟ وهل يجهل أحد عربياً كان أو غير عربى ما هو المصحف؟

قلت: ترفق بى وأخبرنى!

قال: المصحف هو الكتاب الذى يجمع القرآن بين دفتيه، ويحوى سور القرآن من الفاتحة إلى الناس بين جلدتيه.

قلت: لا. ليس هذا هو المصحف. أو على الأقل ليس هذا هو المصحف فى الزمان الذى نتحدث عنه.

قال : فقل لى يا بحر يا فهامة ما هو المصحف؟

قلت : المصحف هو الكتاب الذى تجمع فيه الصحف، أى صحف، وما صار عَلماً على القرآن وحده إلا بعد جمعه.

قال : فما فائدة ذلك فيما نحن فيه؟

قلت : بل هو تفسير ما نحن فيه. فإن عثمان لم يحرق المصحف القرآن المتواتر عن النبى عليه الصلاة والسلام، وما كان له أن يفعل ذلك ولو فعله لوقف له الصحابة بالمرصاد.

أتعرف أن على بن أبى طالب كأنه كان يراك ويسمعك ويعرف أن الزمان سيجود يوماً بالعباقرة النقاد أمثالك فترك شهادته على ما حدث.

قال : بدأت فى توبيخى وتقريعى ونسيت ما اتفقنا عليه.

قلت : بل لم أنسه. وإنها لشهادة وما هى بتوبيخ ولا تقريع. فقد روى ابن أبى داود بسند صحيح عن على أنه قال : لا تقولوا فى عثمان إلا خيرا؛ فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا.

وروى ابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة ٣٠هـ أنه قال : لو وليت منه (أى القرآن) ما ولى عثمان لسلكت سبيله.

قال : إذاً فإن عثمان لم يحرق المصاحف التى هى القرآن المتواتر.

قلت : نعم.

قال : فماذا يكون قد أحرق إذا؟ لا أظنك ستقول لى : إنه أتى بقصص وحكايات فى هذه الصحف فأحرقها. فأى طفل لابد يدرك ببديهته أن ما أحرقه كان قرآناً أو على الأقل على صلة به.

قلت : إن إعجابى بك ليزيد يوماً بعد يوم. نعم! إنه أحرق شيئاً له صلة بالقرآن ولكنه ليس هو القرآن.

قال : ها قد عدنا إلى الألغاز مرة أخرى!

قلت : قل لى : أنت طالب فى الجامعة.

قال: وعدنا إلى الأحجيات أيضاً! يا لحبالك الطويلة!

قلت: وأنت طالب نجيب تكتب كل ما يمليه عليكم الأستاذ بدقة شديدة.

قال: وماذا بعد ذلك؟

قلت: بعد ذلك أنك طالب مدقق تريد أن تعرف معنى كل كلمة والمقصود من كل عبارة. فماذا تفعل؟

قال: أمرى إلى الله. كنت أميل إلى من بجوارى عن يمينى أو يسارى فأستوضحه أو أستفهم منه.

قلت: فأنت قد علمت المراد وأنت لا تريد أن تنسى ما استفهمته فماذا تفعل؟.

قال: كما كنا نفعل دائماً ونحن فى الجامعة نتلقى العلم؛ أسجل معنى الكلمة الغامضة أو المراد بالعبارة بعدها بين أقواس.

قلت: فإنهم حينئذ لم يكونوا يعلمون الأقواس ولم تكن قد اخترعت بعد.

قال: لم تكن قد اخترعت بعد! عمن تتحدث؟!

قلت: عن الذين كانوا يكتبون القرآن فى ذلك الزمان! فإنهم كانوا يسمعون القرآن فيكتبونه وبعضهم يكتب داخل النص تفسير كلمة أو معنى آية.

فقل لى: أيكون ما زادوه من تفسيرات ومعان قرآناً أم غير قرآن؟

قال: وهل هذا فى حاجة إلى ذكاء. غير قرآن طبعاً.

قلت: فإذا أحرقه عثمان أيكون أحرق المصحف القرآن أم أحرق المصحف الصحف التى اختلط فيها القرآن بغير القرآن من تفسيره ومعانيه؟

برقت عيناه وهم بأن يحتج فقلت بسرعة: أعلم ما ستقوله: البينة. دائماً ما تنسى البينة!

فهدأ وابتسم ثم قال: ينبغى لى أن أحذر منك؛ فإنك من طول مجالستى لكأنك تستشف ما فى نفسى.

قلت: فإليك البينة: كان فى مصحف سعد بن أبى وقاص ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ

﴿ أُخْتٌ « من أم » ﴾. ألا ترى أن هذه الآية جاءت فى سورة النساء مرتين: مرة بخصوص الإخوة لأم والأخرى للإخوة لأب، فوضع الذى يكتب كلمة « من أم » من عنده ليميز بين الآيتين ويعرف محل الحكم فيهما.

وفى مصحف ابن مسعود: ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ « متتابعات » ﴾، فمتتابعات هذه استطراد لتوضيح ضرورة التتابع فى الصيام. ومثلهما وأوضح منهما على كتابة التفسير بجوار القرآن فى النص من كتب فى مصحفه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا « والورود الدخول » ﴾، فالجملة الثانية شديدة الوضوح فى أن صاحبها أراد تفسير معنى الورود فكرره وذكر معناه بعده.

قال: إن ما تقوله لمقبول. ولكن أيعقل أن تكون المشكلة فى كل هذه الصحف التى أحرقت أن بها كلمات زائدة فى النص لتفسيره وتوضيح معناه هنا أو هناك؟

قلت: بل وهناك من الصحف كثير مما لا دليل على تواتره عن النبى عليه الصلاة والسلام، أم كنت تريد كل من أتى بكلام مكتوب فى صحيفة أن يُصدق ويقال له: آمين؟ فأين إذاً التوثيق والتأكد من النسبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام؟ ولو أنهم أخذوا بكل صحيفة وجدوها دون توثيق لكان ذلك أدعى للنقد والاتهام والشك فى نسبة القرآن إلى النبى عليه الصلاة والسلام.

قلت: أتعرف أن هناك سبباً آخر لهذا الإحراق؟

قال: وهل بعد كل ما حشدته بقى شئ؟

قلت: نعم. ألم تكن العرب أمة أمية؟

قال: بلى!

قلت: وكان عهدهم بالكتابة حديثاً، بل إن الكتابة لم تستخدم فى هذا العصر فى شئ حقيقى له جدوى إلا فى عملية تسجيل القرآن نفسه.

فقل لى: كيف يكون إتقان الطفل للكتابة فى سنوات دراسته الأولى؟

قال: وكيف يكون إتقان فى شئ ما زال يتعلمه، وهو بعدُ صغير يحتاج لزمن ومِران وإرشاد حتى يستقيم قلمه وخطه.

قلت: وهكذا كان العرب أطفالاً فى الكتابة ومن برع فيها منهم قليل، ومن هذا القليل اختار النبى عليه الصلاة والسلام كتاب وحيه.

قال: فماذا عن الباقين؟ أكلهم كان يجهل الكتابة؟ فإذاً كيف كتبوا ما كتبوا من القرآن فى الصحف؟

قلت: بل يعلمونها علم الطفل الناشئ فيكتبون قدر ما يطيقون وما يعرفون. وهاك الدليل قبل أن تبرق عيناك وتحمر وجنتاك.

روى ابن فارس فى كتابه الصاحبى عن هانئ قال: كنت عند عثمان رضى الله عنه وهم يعرضون المصاحف، فأرسلنى بكتف شاة إلى أُبى بن كعب وفيها «لم يتسن» و «فأمهل الكافرين» و «لا تبديل للخلق».

قال: فدعا بالدواة، فمحا إحدى اللامين وكتب ﴿لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومحا فأمهل وكتب ﴿فَمَهِّلِ﴾ [الطارق: ١٧]، وكتب ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فألحق فيها هاء.

وكما ترى فهذه أخطاء إملائية وقع فيها كثير ممن يكتبون ما يسمعونه دون إرشاد النبى عليه الصلاة والسلام. أفتسمى هذا قرآناً؟ وأيكون عثمان قد أحرق المصاحف؟

ها! أين جبلك الآن؟ أمستقر راسخ أم طائر مع الرياح؟

ابتسم قائلاً: إنك لخصم عنيد ومراوغ زئبقى. ولكن الأمر لم ينته بعد. وإن بينى وبينك لساحة أخرى. قل لى:.....

قلت مقاطعاً له: على رسلك وترفق بى وبنفسك. فإنك قد أرهقتنى. وما أرى مراوغا يتفلت من الإقرار والاعتراف الصريح إلا أنت. فاختر الساحة التى تريدها وإنى لفى انتظارك!

* * *